من نجوم الإسلام
(٢)

عبد الله بن رواحة

فارس رسول الله

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

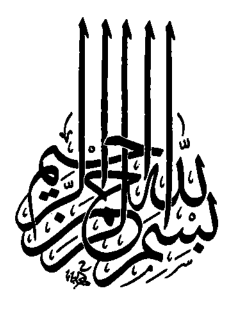
الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

عبد الله بن رواحة

فارس رسول الله



بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

رأيت فيما يرى النائم، أنني أمام رجل جميل، بهيّ، مهيب، أعرفه ولا أعرفه.. كنت واثقاً من أنني أعرفه، وإلاَّ، فلماذا خفق قلبي بقوة وأنا أنظر إليه؟ ولماذا شعرت باندفاع لكي أعانقه وأقبّل يديه؟

تقدّمت منه قليلاً في شيء من التردد، وسألته:

ـ من أنت رجاء؟

فقال وهو يبتسم:

ـ احزرْ.. اسمي عبد الله، وكنيتي أبو محمد.. وُلدتُ في يثرب، وأنتسبُ إلى الخزرج، وتعلمتُ القراءة والكتابة، وكنتُ من العرب القلائل الذين يكتبون في الجاهلية.

أسلمتُ على يد الداعية العظيم مصعب بن عمير، وشهدتُ بيعةَ العَقَبةِ الثانية، وكنتُ أحد النقباء الاثني عشر. وبعد هجرة الرسول الكريم إلى المدينة المنورة، آخى النبيُّ بيني وبين المقداد بن عمرو، وشهدتُ المشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ، إلى أن استُشهدْتُ في معركة مُؤْتة.

فقلت له بفرح غامر:

ــ عرفتك يا سيِّدي عرفتك. أنت عبد الله بن رواحة.

هزّ رأسه مبتسماً وقال:

ــ أصبتَ.. أنا عبد الله بن رواحة، شاعر رسول الله ﷺ وخادمُه وجنديُّه المخلص المطيع.

فتقدَّمْتُ منه، وصافحتُه بحرارة وأنا أقول له:

ــ مرحباً بالشاعر الهُمام، والقائد المقدام.. مرحباً بمن آمن برسول الله قبل أن يراه، وحضر بيعة العقبة الثانية، وعاهد رسول الله على النصرة والتأييد في صدق وثبات.. مرحباً بك يا عبد الله بن رواحة، يا شاعر رسول الله، ويا فارسه الشهيد.

كانت أختي صادقة تتقدم منا على استحياء، فناديتُها:

ــ تعالي يا أختي، فهذا سيدي المجاهد الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة..

فأسرعتْ صادقةُ نحونا، ثم سلّمتْ وحيَّتْ بتحية الإسلام:

ــ السلام عليكم ورحمة الله.

فرددنا التحية بخير منها ثم قلت:

ــ هذه أختي صادقة، تلميذة في الصف الأول الإعدادي.. إنها أصغر مني بسنتين، ولكنها تلميذة مجدّة، تحفظ الكثير من سُوَرِ القرآن الكريم، ومن حديث الرسول القائد، وتقضي أكثر أوقاتها في

قراءة سيرة سيد الخلق محمد ﷺ، وسِيَرِ أصحابه، وسير العظماء والصالحين في تاريخنا المجيد.

ولمّا رآني عبد الله سكتُّ قال:

ــ ولكنك لم تعرّفني بنفسك يا بنيّ.. فمن أنت؟ ومن أختُك؟ ومن أي البلاد أنتم؟ فإني أراكما ترتديان ملابس لا عهد لي بها، وأراك تتحدث بلهجة حلوة. فمن أنتم؟

فأجبته:

ــ اسمي صادق أمين، عمري أربعة عشر عاماً، ونحن من أبناء القرن الهجريّ الخامسَ عشرَ، ومن بلاد الشام.

كان عبد الله ينظر إليّ في حبّ واستغراب، ثم قال لي:

ــ من القرن الخامسَ عشرَ؟

ــ نعمْ.. من القرن الخامسَ عشرَ.

فسأل:

ــ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ أو ما الذي جاء بي إليكم؟

فقلت له:

ــ الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، يا سيِّدي، ما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلف.. ألم يقل الرسول القائد هذا يا سيِّدي؟

ــ بلى قاله، وهو من جوامع كلامه عليه الصلاة والسلام.. ولكن كيف؟

فقلت:

ـ أنا أحلم يا سيدي.. أنا في حلم لذيذ من أحلامي الجميلة.. وأنا وأختي صادقة من محبّي الشعر.. من محبّيك ومحبّي شعرك يا سيدي.. ولهذا، نرجو أن يتَّسع صدرُك لأسئلتنا وإلحاحنا عليك.

فأشرقَ وجهُ عبد الله بالحبور وقال:

ـ حباً وكرامة يا حَفَدَتي الأعزّة.. أنا رَهْنُ إشارتكم..

فقلت:

ـ قلتَ يا سيدي: إنك من العرب القلائل الذين يقرؤون ويكتبون، فهل كتبتَ للرسول القائد عليه الصلاة والسلام؟

فأجاب عبد الله:

ـ أجل يا بني.. كنتُ من المقرَّبين إلى رسول الله ﷺ، وكنتُ من كُتّابه، وكنتُ من كَتَبَةِ الوحي أيضاً، وكنتُ من شعراءِ الدعوة، وكنتُ أعلِّمُ إخواني المسلمين، القراءةَ والكتابة..

فسألتُه:

ـ هل هناك فرقٌ بين كاتبٍ عند رسول الله، وبين كاتب الوحي يا سيِّدي؟

وأجاب:

ـ أجلْ يا بني.. فبعضُ المسلمين كانوا يكتبون ما يأمرهم الرسول بكتابته من رسائلَ وأوامر، وما كان يكلّفهم بكتابة الوحي،

وكان فريقٌ آخَرُ من المسلمين يكتبون له كلَّ شيء، وكانوا يكتبون له الوحي الذي يتنزَّلُ عليه.

ـ هذا يعني أنك كنت من الموثوقين لدى الرسول القائد يا سيِّدي؟

ـ الحمد لله.. فإني أتقرَّب إلى الله بحبِّ نبيِّه ﷺ، وكان النبيُّ الكريم يعرف مدى حبّي له، وكان عليه السلام يبادلني مثْلَ هذا الحب، وكان يدعو لي.. وعندما عدت من بيعة العقبة الثانية إلى المدينة المنورة مَنَّ اللَّهُ عليّ بولد ذكرٍ، فأسميْتُه محمداً، تيمّناً باسم محمد رسول الله ﷺ..

وكنتُ أمنّي النفسَ بهجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب، لكي تستنير بنور نبيِّ الإسلام، وليهتديَ على يديه من لا يزال على الشرك، ولأكونَ إلى جانبه، أعُبُّ من نوره ونور تعاليمه، فلمّا شرَّفَ المدينةَ بمَقْدَمِه الكريم، آخى بيني وبين البطل المغوار المقداد بن عمرو.. فماذا بعد؟

قلت:

ـ نريد معرفة كلّ شيء عن حياتك يا سيدي، فهل إلى هذا من سبيل؟

ـ طبعاً إذا شاء الله، فأنا هنا رهن إشارة أحبّاء رسول الله ﷺ..

قالت صادقة:

ـ ونحن ننتظر أحاديثك بفارغ الصبر يا سيدي.. تفضل..

تنحنح عبد الله بن رواحة ثم قال:

ـ حياتي الحقيقية بدأت مُنْذُ أسلَمْتُ على يد الداعية المجاهد الشهيد مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ رضي الله عنه، وشهدتُ مع مصعب بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثانية، وكنتُ أحد النُّقَباء الاثني عشر، وقد عدتُ مع إخواني إلى يثرب، بعدما قطعتُ عهداً على نفسي أن أكون مع رسول الله ﷺ ناصراً ومؤيداً في صدق وثبات. وأرجو أن أكون قد وَفَيْتُ بما عاهدْتُ عليه سيدي رسولَ الله، وبما قطعْتُه على نفسي.

فقلت: كلَّ الوفاء يا سيدي، فقد ثَبَّتَكَ اللَّهُ أحسنَ تثبيت، ثم اصطفاك شهيداً، وفتحَ لك أبواب الجنة على مصاريعها، ترتعُ في حُوَيْصلاتِ طيورٍ خُضْرٍ حيثُ شئتَ من الجنة.

فقال عبد الله مستدركاً:

ـ أذكرْتَني ذكرى جميلة بقولك: ثَبَّتَكَ الله، يا حفيدي العزيز، أريد أن أرويها لكم.

قلت: ونحن مستعدون لسماعها، وشكرك عليها يا سيدي يا شاعر رسول الله ﷺ.

فقال ابن رواحة:

ـ مررت بالمسجد، ورسول الله ﷺ جالس، وعنده أناس من أصحابه، في ناحية منه، فلمّا رأوني صاحوا: يا عبد الله بن رواحة، يا عبد الله بن رواحة. فعَرَفْتُ أنَّ رسول الله يريدني، فانطلقتُ نحوه، حتى إذا ما وصلت إليه، سلّمتُ عليه، فدعاني إلى الجلوس، فجلستُ بين يديه، فقال لي: أخبرْني ما الشعرُ يا عبد الله؟

فقلت له: الشعر شيء يختلج في صدري، فينطقُ به لساني.

فقال لي رسول الله ﷺ: قل شعراً تقتنصُه الساعةَ وأنا أنظر إليك.

فقلت:

إني تفرَّسْتُ فيكَ الخيرَ أعرفُه ... واللَّهُ يعلم أنْ ما خانني البصرُ
أنتَ النبيُّ، ومن يُحْرَمْ شفاعتَه ... يومَ الحساب فقد أزرىٰ به القَدَرُ
فثبّتَ اللَّهُ ما آتاك من حَسَنٍ ... تَثبيتَ موسى، ونصراً كالذي نصروا

وعلّقت صادقة على هذا الشعر الجميل بقولها:

ــ ما أروعَ هذا الشعرَ وما أصدقَ عاطفةَ قائلِه!..

ثم التفتتْ إلى ابن رواحةَ وقالت له:

ــ ولهذا استثناك ربُّك واستثنى الشعراء المؤمنين الذين يَنْهَجُون نَهْجَك يا سيدي عندما قال سبحانه وتعالى:

﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الغاوون. ألَمْ ترَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يَهِيْمون. وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللَّهَ كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظُلموا، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون﴾. صدق الله العظيم.

فأنت يا سيدي مؤمن عميق الإيمان، عملتَ الصالحاتِ، وذكرتَ اللَّهَ كثيراً، ونصرتَ اللَّهَ ورسولَه والإسلامَ والمسلمين نصراً مؤزَّراً.

ولمّا سكتت صادقة استأنفَ عبد الله كلامه وقال:

ـ عندما أنشدْتُ هذه الأبياتَ بين يَدَيْ سيدي وقائدي رسول الله ﷺ، ووصلتُ إلى قولي: فثبَّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ، قال عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو يُقْبل عليّ بوجهه مبتسماً:

ـ «وإياكَ فثبَّتَ الله».

فقلت: وقد ثبَّتَك الله يا سيدي إلى أن لقيتَ ربَّك شهيداً.

وقالت صادقة:

ـ أنا لا أنسى أبياتك هذه التي تفخر فيها بالرسول القائد يا سيدي:

وفينا رسولُ اللَّهِ نتلو كتابَه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
يبيتُ يجافي جَنْبَه عن فراشه ... إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ
أتىٰ بالهدىٰ بعد العمىٰ فقلوبُنا ... به موقناتٌ: أنَّ ما قال واقعُ..

وقلت، وقد أخذتني الحماسةُ أو الغَيْرَةُ من أختي صادقة التي ذكرتْ تلك الأبيات الرائعة:

ـ وأنا يا سيّدي أحفظ أربعة أبيات أخرى، من تلك القصيدة البديعة التي ارتجلْتَها بين يَدَيْ رسول الله ﷺ، فهل تسمح لي بإنشادها؟

فهزّ عبد الله رأسه موافقاً، فقلت:

نجالدُ الناسَ عن عِرْضٍ فنأسرُهم ... فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ
وقد علمتم بأنّا ليس يَغْلِبُنا ... حيٌّ من الناس إن عزُّوا وإن كثُروا

يا هاشم الخير إنَّ الله فضَّلكم على البريّة فضلاً ما له غِيَرُ
إنّي تفرّسْتُ فيك الخيرَ أعرفُه فراسةً خالفَتْهم في الذي نظروا

فعلّقت أختي على إنشادي وعلى هذه الأبيات بقولها:

ـ هذا هو الشعر.. هذا عسلٌ مصفًّى.. إني لأقرأ الحبَّ والصدقَ والإيمانَ والإخلاصَ في السطور وما بين السطور.. فلكل كلمة ظلٌّ وارفٌ يُدْخِلُ الطُمَأْنينةَ على القلب الحائر القلق..

ثم قلت لسيدي عبد الله بن رواحة:

ـ نحن نعلم يا سيدي أنك كنت سيداً مطاعاً في قومك، وقد أسلم على يديك خلقٌ كثير ممن يثقون بك، وكان لك حكاية مع الصحابي الجليل أبي الدرداء، فهل تذكُرُ لنا قصةَ إسلامه يا سيدي؟

فأشرقَ وجهُ عبد الله بابتسامة رضيّة وقال:

ـ عندما جاءنا الداعية العظيم مصعب بن عمير إلى المدينة المنوّرة، استطاع أن يُدْخِلَ الإسلام إلى كلِّ بيت من بيوت يثرب، إلاَّ بيتَ أخي أبي الدرداء.

فقاطعتُه وسألتُه:

ـ هل أبو الدرداء رضي الله عنه أخوك يا سيدي؟

فأجابني:

ـ نعم.. إنه أخي من أمي.

صادقة: ولم تفعل شيئاً لإقناعه بالإسلام؟.

عبد الله: بل فعلتُ الكثيرَ من أجل نقله من الشرك إلى الإسلام.

صادقة: كيف؟

عبد الله: كان لأبـي الدرداء صَنَمٌ يعكفُ عليه، فيغسلُه ويطيِّبُه ويعبده من دون الله. وقد حاولت معه مراراً فلم أفلح.. راودْتُه على الإسلام فكان يأبـى أشدَّ الإباء أن يترك دين أجداده وصنَمه، حتى كان يومٌ.. ذهبتُ إلى صنمه فقطّعتُه إرْباً إرْباً وأنا أنشد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ.

صادق: وأبو الدرداء؟ كيف تركك تفعلُ بصنمه ما فعلت؟

عبد الله: لم يكن أبو الدرداء في البيت وقتَئذٍ، وعندما عاد إلى بيته، أخبرَتْه زوجتُه بما فعلتُ، فنظر إلى صنمه المحطَّم وقال:

ــ «لو كان عند هذا الصنم خيرٌ لدافع عن نفسه».

ثم جاءني وأسلم، وصار من خيرة صحابة رسول الله ﷺ.

صادقة: وبعد استشهادك يا سيدي، كان أخوك أبو الدرداء يقول:

ــ أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة..

كان إذا لقيني مُقْبلاً ضرب بين ثديـيّ، وإذا لقيني مُدْبراً ضرب بين كتفيّ ثم يقول:

ــ «يا عويمر. اجلس بنا فلنؤمن ساعة».

فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول:

ـ «يا عويمر.. هذه مجالس الإيمان».

صادق: ونحن الآن نحبّ أن نجلس مجلساً من مجالس الإيمان معك يا سيدي.

صادقة: نريد المزيد من هذه الذكريات الحلوة يا سيدي؟

فابتسم عبد الله بن رواحة وقال:

ـ بل سأحدثكم عن نسل الأفاعي من يهود، أردأِ خلقِ اللَّهِ طِباعاً... هؤلاء الغادرون الفاسدون المفسدون ما أحببتُهم قطُّ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام. ومع ذلك كلّفني سيدي رسول الله ﷺ بالذهاب كلَّ عامٍ إلى خيبر، لأخْرُصَ لهم نخيلَهم؟.

فقاطعته وسألته:

ـ عفواً سيدي الكريم.. ما معنى قولك: لأخرُصَ لهم نخيلَهم؟.

فأجاب عبد الله:

ـ يعني لأحزرَ وأقدِّرَ ما على النخيل من تمرٍ ورُطَب..

ثم استأنف حديثه وتابع يقول:

ـ وكنت عادلاً وصارماً معهم، فحاولوا رشوتي، ولكنني رددتهم ردًّا شديداً، وعرّفْتُهم أنَّ المسلم لا يرتشي ولا يخون الأمانة. فاستاؤوا مني، ولكنهم عادوا فرضُوا بحُكْمي، وأشادوا بعدلي الذي استمددْتُه من عدل الإسلام.

وسكت عبد الله لحظة ثم قال:

ـ ذكرتُ لكم هذه الحادثة، لتكونوا على بيّنة من أمركم وأنتم تجاورون يهود، ويتعامل بعضكم معهم ويتحاور، فكونوا واعين، وافتحوا عيونكم جيّداً، واعرفوا أين تضعون أقدامكم..

وقالت أختي صادقة:

ـ بارك فيك يا سيدي على ذكر هذه الحادثة، وعلى هذه النصيحة الثمينة، فقد سبق لآبائنا تجارِبُ مريرةٌ معهم منذُ ما يقرب من قرن من الزمان.

ولكن.. ألا نعود إلى أجواء الذكريات الإيمانية والجهادية يا سيدي؟

فقال عبد الله:

ـ نعود.. مع أننا لم نغادرها حتى نعود إليها يا ابنتي..

ـ ماذا عن ذكرياتك في غزوة بدر يا سيدي؟

ـ لي في غزوة بدر ذكريات وذكريات، أذكر منها:

قبل أن ينشب القتال في بدر، خرج من صفوف المشركين عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ، ومعه أخوه شَيْبَةُ وابنُه الوليد، وطلبوا مبارزة المسلمين، فخرجتُ إليهم أنا وعوفٌ ومعوِّذٌ ابنا عفراء، فسألَنا عتبة:

ـ من أنتم؟

فقلنا: رَهْطٌ من الأنصار.

فقال عتبةُ: ما لنا بكم من حاجة. .

ثم نادى: يا محمد. أخرِجْ إلينا أكفاءَنا من قومنا.

فأمر رسول الله عمَّه حمزَة، وابني عمه علياً وعبيدة بن الحارث، فخرجوا لمبارزة عتبةَ وأخيه وابنه، ونصرهم الله عليهم فقتلوهم جميعاً، ثم استشهد عبيدة متأثراً بجراحه في تلك المبارزة.

فقلت:

ـ صلَّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ما أعظمك. . تقدِّمُ أهلَك للمخاطر، بل تقدِّمُ نفسَك، وتضنُّ بدماء المسلمين، في حين نرى القادة والزعماء اليوم يضحُّون بجنودهم ويضنّون بأنفسهم وبأولادهم وبأموالهم. . ثم ماذا يا سيدي؟

فقال عبد الله بن رواحة:

ـ رأيت رسول الله ﷺ يشتدّ في تضرعه ودعائه إلى الله بنصر المسلمين، وكان يقول: اللهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العِصابةُ اليومَ لا تُعْبَدُ.

فتقدمت منه، وقلت له:

ـ يا رسول الله. . إنّ الله أجلُّ وأعظمُ من أنْ نَنْشُدَه وَعْدَه.

فسألتْ أختي صادقة:

ـ وماذا كان ردُّ الرسول القائد عليك يا سيدي؟

أجاب عبد الله:

ـ فقال لي رسول الله ﷺ: يا ابن رواحة، ألا أَنشُدُ اللَّهَ وَعْدَه؟ إنّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد.

ثم عدتُ أسأله:

ــ ثم ماذا عن ذكرياتك في غزوة بدر يا سيدي؟

فـأجـاب:

ــ بعد أن نصر الله رسوله في بدر، بعثني رسول الله إلى المدينة لأبشِّرَ المسلمين بالنصر، فانطلقت على ناقتي لأبشر أهل العالية، كما انطلق زيدُ بنُ حارثةَ على ناقةِ رسول الله ليبشِّرَ أهلَ السافلة في المدينة، فانطلقْنا، حتى إذا بلغْنا العَقِيقَ من المدينة، ضُحَى يومِ الأحد، التاسعَ عشرَ من شهر رمضان، اتجهتُ إلى أهل العالية من جهة الشمال، وأخذتُ أنادي بأعلى صوتي، وأنا على ناقتي:

«يـا مَعْشَـرَ الأنصـار، أبشـروا بسـلامـة رسـول الله ﷺ، وقتـلِ المشركين وأسْرِهم. قُتِلَ ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقُتِلَ زَمْعَـةُ بـنُ الأسـود، وأميّـةُ بـن خلـف. وأُسـر سهيـل بـن عمـرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة».

صادقة: وفرح المسلمون بهذا النصر العظيم فرحاً عظيماً.

عبد الله : وقام إليّ عاصمُ بن عَدِيٍّ فسألني:

ــ أحقاً ما تقول يا ابن رواحة؟

فقلت له: إي والله. وغداً يَقْدَمُ رسولُ الله ﷺ إن شاء الله، ومعه الأسرى مقرَّنين في الأغلال.

ــ ثم ماذا يا سيدي أرجوك؟

ــ ثم أخذتُ أتتبَّعُ دُورَ الأنصارِ بالعالية، فأبشّرهم داراً داراً بالنصر المبين، والصبيانُ يشتدُّون معي في الركض ويقولون: قُتل

أبو جهل الفاسق.

ــ الله أكبر.. الله أكبر..

ــ ثم اجتمع الأنصار عند المصلَّى، وخرجوا لاستقبال رسول الله وتهنئته بالنصر.

فهتفتُ:

ــ الله أكبر، ما أروع النصر، وما أعظمَ حبَّ المسلمين للرسول القائد..

ثم ماذا عن بدر يا أبا محمد؟

عبد الله: واستشار رسول الله أصحابه في أسرى المشركين، وكنتُ ممن استشارني فيهم.

صادقة: وبماذا أشرتَ يا سيدي؟

عبد الله: قلت للرسول الكريم:

ــ يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقِهم فيه.

صادقة: ولكن الرسول القائد أخذ برأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقَبِلَ الفِداءَ من الأسرى.

ثم سألتُ ابنَ رواحة:

ــ وفي غزوة أحد؟

فأجاب عبد الله:

ـ في غزوة أحد جالدتُ المشركين دونَ رسول الله ﷺ، وقد رثيتُ حمزةَ سيّد الشهداء بقصيدة طويلة أذكر لكم بعض أبياتها:

بكـتْ عينـي وحـقَّ لهـا بُكـاهـا ... ومـا يغنـي البكـاءُ ولا العـويـلُ
علـى أسـد الإلـه غـداةَ قـالـوا: ... أحمـزةُ ذاكـم الـرجـل القتيـلُ؟
أُصيـبَ المسلمـون بـه جميعـاً ... هنـاك وقـد أصيـب بـه الـرسـولُ
أبـا يعلـىٰ لـك الأركـانُ هُـدَّتْ ... وأنـت المـاجـدُ البـرُّ الـوَصُـولُ
عليـك سـلامُ ربِّـك فـي جنـانٍ ... مُخـالطُهـا نعيـمٌ لا يـزولُ

وفي هذه القصيدة رثيتُ الشهداء، وعزّيتُ الرسول والمسلمين، وهجوت المشركين، وذكَّرْتُهم بيوم بدر، وقلت لهم: إن قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار.

صادقة: بارك الله فيك يا شاعر رسول الله، فقد كانت قصيدتك هذه من روائع الشعر الإسلامي.. فهل تُسْمِعُنا غيرَها يا سيّدي؟

عبد الله: كان صديقي نافع بن بُدَيْل ممن غَدَرتْ بنو سُلَيْم به وبأربعين من إخوانه المسلمين في بئر معونة، وكلّهم من خيرة الصحابة، فرثيتُه بأبيات قلت في بعضها:

رحـم الله نـافـعَ بـنَ بُـدَيْـلٍ ... رحمـةَ المبتغـي ثـوابَ الجهـادِ
صـابـرٌ، صـادقٌ، وفـيٌّ، إذا مـا ... أكثـرَ القـومُ قـال قـول السَّـدادِ

فهتفت من جديد:

ـ هيه يا سيدي أبا محمد، فنحن في شوق لسماع المزيد من هذا الشعر الرائع.

عبد الله: في غزوة الخندق، كان رسول الله ﷺ يحفر معنا مرة، ويحمل التراب مرات، حتى غطّى التراب بياض إبطيه، وكنت أنظر إليه وأرتجز:

واللَّهِ لولا أنت ما اهتَدَيْنا ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنا

فأنزِلَنْ سَكِينةً علينا وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا

إنَّ الذين قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنةً أبَيْنا

صادقة: عفواً سيدي ابن رواحة.. كم يوماً حفرتم الخندق؟

عبد الله: عشرين يوماً.. بقينا عشرين يوماً ونحن نحفر الخندق.. كانت من أحلى الأيام وأقساها في الوقت نفسه.. وقد حصَلَتْ في هذه الغزوة معجزةٌ للرسول الكريم ﷺ، رفعتْ معنوياتِ المسلمين.

صادقة: أيَّ معجزة تعني يا سيّدي؟

عبد الله: اسمعوا إذن هذه المعجزة..

بينما كان رسول الله ﷺ يعمل مع أصحابه في حفر الخندق، شاهد بنتاً صغيرة تحمل شيئاً في طرف ثوبها، فناداها، فأقبلت إليه، فسألها عما تحمل، فقالت له:

ـ دعتْني أمّي عَمْرَةُ بنتُ رواحة، فأعطتْني حَفْنةً من تمر وضَعَتْها في ثوبي هذا، وقالت لي: اذهبي يا ابنتي إلى أبيك (بشير بن سعد) وخالِك عبدِ الله بن رواحة بغدائهما.

فقال لها النبي الكريم: هاتيه..

فصبَّتْه في كفَّي رسولِ الله ﷺ، فما ملأهما.

ثم أمر رسولُ الله بثوبٍ فبُسِطَ له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدَّدَ فوق الثوب، ثم قال لأحد أصحابه:

ـ اصرخْ في أهل الخندق، أنْ هلمَّ إلى الغداء.

فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل التمر يزيد، وأكلوا كلُّهم من ذلك التمر حتى شبعوا ولم ينقص من التمر شيء، بل كان يسقط من أطراف الثوب.

صادقة: كم كان عددكم يا سيدي؟

عبد الله: كنا ثلاثة آلاف رجل.. أكلوا كلُّهم من ذلك التمر الذي لم يملأ كفَّيْ رسول الله ﷺ.

صادقة: ما شاء الله.. إنها معجزة هائلة، تجعل معنويات المسلمين في السماوات العُلى.

وسألتُ المجاهد الشهيد ابن رواحة:

ـ وهل استغرقت غزوة الخندق مدة طويلة يا سيدي؟

عبد الله: حاصرَتْنا الأحزابُ شهراً كاملاً..

فسألته من جديد:

ـ من تعني بالأحزاب يا سيدي عبد الله بن رواحة؟

عبد الله: أعني المشركين من قريش والأعراب وبعض القبائل العربية المشركة.. حاصروا المدينة شهراً كاملاً، لا يدخل إلى المدينة طعام، ونحن ثابتون صامدون، نتراشق مع المشركين بالنِّبال عِبْرَ

الخندق، حتى أذِنَ اللَّهُ بكشف الغُمَّة، وسخَّرَ الرياحَ تعصف بخيام المشركين، وتكْفَأُ قُدُورَهم، وتطفىء نيرانهم، ﴿وردَّ اللَّهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتال﴾. صدق الله العظيم.

وأردت أن أسمع المزيد من هذا الصحابـيّ المجاهد فقلت:

ـ ثم ماذا يا سيدي القائد؟

فقال عبد الله: سأعود بكم إلى بعض ذكرياتي مع اليهود الذين لا أحبُّهم، لأنَّ اليهود قوم غدّارون، وقد حاولوا الغدر برسول الله ﷺ أكثر من مرة. غدر بنو النضير، وغدر بنو قريظة، وغدروا في خيبر.. واسمعوا قصتي مع يهود خيبر..

صادقة: تفضل يا سيدي وحدّثنا عن أبناء الأفاعي والقردة والخنازير، فَحَفَدَتُهم يسيرون على خطوات أجدادهم، وينهجون نهجهم في الخِسَّة والغدر واللؤم..

عبد الله: بعد مقتل أبـي رافع، أمير اليهود على خيبر، اختار اليهود أُسَيْرَ بنَ رَزَام أميراً لهم، وكان فارساً شجاعاً، ولم يُضِعِ الوقت، فبادر إلى حشد مشركي العرب ضدّ المسلمين، فسار إلى قبيلة غطفان وأقنعها بحرب المسلمين، ثم وقف في يهود خيبر وقال لهم:

ـ نسير إلى محمد في عُقْر داره، فإنه لم يُغْزَ أحد في عقر داره إلاَّ أدرك منه عدوُّه بعض ما يريد.

صادق: وهل وافقه اليهود على ذلك؟

عبـد الله: طبعـاً وافقـوه، فـالأحقـاد تـأكـل قلـوبهـم، وتحـرق أعصابهم.. وقالوا له: نِعْمَ ما رأيت.

وعَرَفَ رسول الله خبر الكتائب التي يحشدها اليهود في خيبر، فندب رسول الله الناس، فانتدب له ثلاثون رجلاً، وجعلني أميراً عليهم، فخرجْنا حتى وصلْنا إلى خيبر، وأرسلْنا إلى أُسَيْرِ أن يؤمِّننا على أرواحنا حتى نأتيَه لنعرِضَ عليه ما جئنا من أجله، فأجابنا إلى طلبنا، وطلب منا الأمان أيضاً، فقلنا له: أنت آمن.

دخلنا على أُسَيْرِ، وقلنا له:

ــ بعثَنـا رسـولُ الله ﷺ لتخـرُجَ إليـه، فيستعملـك علـى خيبـر، ويحسن إليك.

فـقـلـت:

ــ فطمع في ذلك، على عادة اليهود.. أليس كذلك يا سيدي؟

عبد الله: صدقت يا صادق.. ولكنه شاور اليهود فخالفوه وحذّروه من الخروج معنا، ولكنه لم يسمع لقولهم، وخرج معنا، وكان معه ثلاثون رجلاً من اليهود..

ويبدو أنَّ أُسَيْراً اليهودي لا يغادر طبعه بالغدر، فحاول الغدر بأحد أصحابـي، فتمكَّنَ الصحابـيُّ من قتلِه، ومِلْنا على أصحابه مَيْلَةً واحدة، فقتلْناهم جميعاً إلاَّ واحداً منهم، أعجزَنا هرَباً، ولم يُصَبْ منا سوى رجلٍ واحد، كان أُسيرٌ ضربه ضربةً أليمةً على أمّ رأسه، فشجَّه شجَّةً عميقة. وقد فرح رسولُ الله والمسلمون بمصرع ذلك اليهوديّ

اللئيم، وفرح المسلمون بخلاصهم من كيده وتآمره، وبنجاحنا في مهمتنا.

صادق: الحمد لله الذي نجّاكم من هؤلاء اليهود المجرمين الظالمين، ونصركم عليهم.

صادقة: هل من حادثة أخرى مع أولئك اليهود؟ فسيرة الأجداد هي نفسها سيرة الحفدة، وما نلقاه من تآمرهم الآن ومنذ بداية هذا القرن، لَقِيْتُم مثله منهم يا سيِّدي.

عبد الله: أجل يا ابنتي.. لديّ تجارِبُ وتجارِبُ مع يهود.. واليهوديُّ لا يغادر طبعَه أبداً.. ينبغي أن تضعوا هذا في حُسْبانكم، واحذروا من نعومة الأفاعي..

سكت ابن رواحة هُنَيْهاتٍ، ثم رفع حاجبيه وقال:

الحادثة التي رويتُها لكم كانت في شهر شوال من السنة الهجرية السادسة، وقبلها بأيام.. في رمضان بعثني رسول الله ﷺ في مهمةٍ استطلاعيةٍ إلى خيبر، وكان معي ثلاثة رجال.. ذهبنا إلى خيبر مُسْتَخْفِيْنَ، وتعرَّفْنا أحوالَ أهلها، وما يريدون، وما كانوا يتكلمون به.. دخلْنا بساتينَهم، وعَرَفْنا الكثير مما يبيِّتُه أُسَيْرُ بن رزام للغدر بالمسلمين، ثم رجعنا إلى المدينة المنورة، وأخبرْنا رسولَ الله بكلِّ ما رأينا وما سمعنا.. وكانت مهمتنا هذه استطلاعية ومقدّمة للمهمة التي تلتها بعد أيام في شوال، وقد حدّثتكم عنها.

صادق: هذا يعني أن الرسول القائد قد اختارك لهذه المهمة، لثقته العالية بك، ولدقّتك في تنفيذ ما يوكل إليك من مهمات،

ولحكمتك وشجاعتك ومعرفتك باليهود وطبائعهم، وبخيبر وبساتينها ومسالكها يا سيِّدي.

عبد الله: أنا أحمد الله الذي كان يوفقني لمرضاته، ولخدمة الإسلام والمسلمين، وأشكر سيِّدي رسولَ الله ﷺ على ثقته الغالية بـي.

صادقة: ثم ماذا يا سيِّدي عبد الله بن رواحة؟

عبد الله: كنت فيمن خرج مع رسول الله ﷺ لتأدية العُمْرة.. كنا ألفاً وأربعَ مِئةٍ مسلم، ولكنّ قريشاً حالتْ بيننا وبين بيت الله الحرام.. وكنت ممن حضر بَيْعةَ الرِّضْوان، وبايعتُ رسول الله ﷺ على الموت في سبيل الله، ولكن.. لم يقع بيننا وبين المشركين قتال، وكان صُلْحُ الحُدَيْبِيَة، ورجعْنا إلى المدينة، على أن نعتمر في العام القابل.

صادقة: وحضرتَ يا سيِّدي عُمْرةَ القضاء؟

عبد الله: أجل يا ابنتي.. كنا ألفين، وكنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله القَصْواء، وكنت أرتجزُ ونحن داخلون إلى مكَّةَ المكرَّمةِ بهذه الأبيات:

خلُّوا بني الكفار عن سبيلِهِ　　خلُّوا فكلُّ الخير في رسولِهِ
قد نزّل الرحمان في تنزيلِهِ　　بأنّ خير القتل في سبيلِهِ
يا ربِّ إني مؤمنٌ بِقِيْلِهِ　　أعرِفُ حقَّ اللَّهِ في قبولِهِ
نحن ضربْناكم على تأويلِهِ　　كما ضربْناكم على تنزيلِهِ

فقلتُ (شارحاً): التأويل هنا، هو ما يَؤُوْلُ إليه نبأُ اللَّهِ لنبيِّه، ومصيرُ المؤمنين إلى ما وعدهم به.

عبد الله:

ضـرْبـاً يُـزِيْـلُ الهـامَ عـن مَقِيْلِـهِ ويُـذْهِـلُ الخليـلَ عـن خليلِـهِ

وقلت مقاطعاً وشارحاً معاني بعض الكلمات التي لا تعرفها أختي صادقة:

ــ الهام: جمع هامة، وهي الرأس. ومقيل الرأس: مغرزه بين الكتفين.

صادقة: يا سلام.. ما أروع هذا الشعر!!.. ثم ماذا يا سيدي ابن رواحة؟

عبد الله: فقال عمر بن الخطاب: يا ابن رواحة، أفي حَرَمِ اللَّه، وبين يَدَيْ رسولِ الله ﷺ، تقول هذا الشعر؟

صادقة: وبماذا أجبْـتَه يا سيِّدي؟

عبـد الله: أنـا لـم أرُدَّ عليـه يـا ابنتـي.. الـذي ردَّ عليـه هـو رسولُ الله ﷺ.

صادقة: ماذا قال له يا سيِّدي؟

عبد الله: قال له الرسول الكريم: «خلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده، لَكَلامُه أشدُّ عليهم مِنْ وَقْعِ النَّبْل».

فقلتُ معقِّباً على ما سمعتُ:

ــ مـا أعظمَـكَ يـا سيِّـدي يـا رسـول الله، ومـا أرفـعَ ذوقَـك، وما أخبرَك بدواخلِ النفوس، فقد كنتَ تعرف لكل شيء قَدْرَه، وتعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.. كنتَ تعرفُ للشعراء مكانتَهم، وللشعر دَوْرَه في المعركة.. ثم ماذا في جَعْبَتِك من هذه الذكريات الحبيبة يا سيِّدي؟

فتدخلتْ أختي صادقة وقالت له:

ـ أريد أن أخرج عن حديث الشعر لحظاتٍ لأعودَ إليه بعد قليل..

لقد قال أخوك أبو الدرداء يا سيِّدي:

«لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحارِّ الشديد، حتى إنَّ الرجل لَيَضَعُ من شدَّةِ الحرِّ يدَه على رأسه، وما في القوم صائمٌ إلاَّ رسولُ الله ﷺ وعبدُ الله بن رواحة».

وأخذتني الغيرة من أختي صادقة، فاستلمت الحديث منها وقلت:

ـ ومن المعروف عنك يا سيِّدي، شدَّةُ حبِّك للرسول القائد، تطيعه في سائر أوامره وفي سائر أحوالك. وأنا أذكر أني قرأت في سيرتك العطرة، أنك دخلتَ يوماً مسجد الرسول الكريم، فرأيتَ الصحابةَ ينصتون لخُطْبَةِ رسول الله ﷺ، وسمعتَ الرسول القائد يقول لأصحابه: اجلسوا، وكنتَ خارج المسجد، فجلستَ حيث كنتَ عند الباب ولم تدخل، طاعةً لأمر النبـيّ الكريم، وبقيتَ خارجَ المسجد تستمع للخطبة الشريفة حتى فرغ الرسول الكريم منها، ولمَّا بلغَ رسولَ الله ذلك، شكر عملَكَ، ودعا لك بقوله: «زادَكَ اللَّهُ حرصاً على طَوَاعية الله وطواعية رسوله».

صادقة: وكانت زوجتك تقول: ما خرج عبد الله من بيته إلاَّ صلَّى ركعتين، ولا عاد إلى بيته إلاَّ صلَّى ركعتين.

فتدخّل عبد الله وقال:

ـ لا تقصموا ظهري بإطرائي، ولا تقطعوا عنقي بمديحي في وجهي يا أولادي.

فقالت صادقة:

ـ لا بأس يا سيدي.. ولكني قلت: إنني سأعود إلى ذكر الشعر والشعراء، لأسألَك عن وقع الآية التي ذكرناها قبل قليل.. آية الشعراء: ﴿والشعراء يتّبعُهُم الغاوون...﴾. ما كان وقعُ هذه الآيات عليكم معشرَ شعراءِ الرسول القائد ﷺ؟.

أجاب عبد الله في سعادة:

ـ حين نزلت تلك الآيات الكريمات من سورة الشعراء أسرْعنا نحن الشعراءَ الثلاثة: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وأنا، إلى رسول الله ﷺ ونحن نبكي ونقول: قد ـ والله ـ عَرَفَنا اللَّهُ ففضَحَنا.

فقال لنا رسول الله ﷺ:

لا يا عبد الله، لا يا حسان، لا يا كعب.. والشعراء يتَّبِعُهُم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. أي أنتم.

قالت صادقة:

ـ أنا قرأت هذا فيما قرأت، وأريد أن تذكُرَ لنا بعضَ هجائك للمشركين يا سيِّدي.

قال عبد الله:

ـ أحبُّ أنْ أُسْمِعَكم بعضَ الأبياتَ الهجائية من القصيدة التي رثيتُ بها أسدَ الله حمزةَ رضي الله عنه.. قلت فيها مخاطباً وهاجياً المشركين:

ألاَ مَــنْ مُبْلِــغٌ عنّــي لُــؤَيّــاً　　فبعــدَ اليــومِ دائلــةٌ تَــدُوْلُ

لم أفهم معنى (دائلة تدول) فسألت عبد الله بن رواحة عن معناها فقال:

ـ فبعد اليوم دائلة تدول: أي أن الأيام دُوَلٌ، يومٌ لك ويومٌ عليك، والحربُ سِجَالٌ، فإذا كانت أُحُدٌ لكم، فسوف تكون غيرُها لنا.. ﴿وتلك الأيام نداولُها بين الناس﴾.

ثم تابع يقول:

وقَبْلَ اليـومِ مـا عَـرَفُـوا وذاقُـوا　　وقــائعَنــا بهــا يَشْفَــىٰ الغَلِيــلُ

صادقة: كأنك تذكِّرُهم بما كان في غزوة بدر يا سيِّدي؟

عبد الله: أجلْ يا ابنتي.. ثم قلت:

نسيتُــمْ ضــرْبَنــا بقليــبِ بــدرٍ　　غــداةَ أتــاكــمُ المـوتُ العَجِيْـلُ
غـداةَ ثـوىٰ أبـو جهـلٍ صـريعـاً　　عليـه الطيــرُ حــائمــةٌ تَجُـولُ
وعُتْبَــةُ وابنــه خــرّا جميعــاً　　وشَيْبَـةُ عضَّـه السيـفُ الصَّقيـلُ
ومَتْــركُنــا أميّــةَ مُجْلَعِبّــاً

مجلعباً: يعني ممتداً على الأرض صريعاً. وأميَّةُ هذا هو ابن خلف.

ومتــركنــا أميَّــةَ مجلعبّــاً　　وفــي حَيْــزُومــه لَــدْنٌ نبيــلُ

الحيزوم: أسفل الصدر. واللدن: الرمح الليّن.

وهــامَ بنـي ربيعـةَ فـاسـألـوهـا　　ففــي أسيــافنــا منهــا فُلــولُ

قالت صادقة:

ـ هذا شعر شريف، ليس فيه فُحْشٌ ولا سِبَابٌ ولا شتائمُ ولا إقذاعٌ مما نقرؤه في شعر الشعراء الهجّائين في الجاهلية والإسلام.

فقال عبد الله:

ـ المسلم عفيف اللسان، وليس بالفَحّاش ولا البذيء..

وقلت أنا: هذا شعرٌ مقاتل.. ثم قلت:

ـ وفي مُؤْتَةَ؟ ألم تقل شعراً في معركة مؤتة يا سيِّدي؟

فقال عبد الله مستغرباً:

ـ وهل يُعقل أن لا أقول الشعر في مثل هذه المناسبة؟

ـ إذن.. نرجو أن تسمعنا شعرك في هذه المعركة.

وقالت صادقة:

ـ بل نريد أن نسمع قصة استشهادك من أولها إلى آخرها من فمك يا سيدي.

فقال عبد الله بن رواحة:

ـ كما تحبّون..

وشردتْ به الذِّكرياتُ، فيما يبدو، فقد رأيتُه يغمض عينيه، ويرفع حاجبيه، قبل أن يقول:

ـ فيما كان المسلمون يودّعوننا إلى مؤتة بَكَيْتُ، فسألني أحدهم:

ـ ما يبكيك يا ابن رواحة؟

فقلت:

ـ أمَا واللَّهِ ما بـي حبُّ الدنيا ولا صَبَابةٌ بكم، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً في كتاب الله عزَّ وجلَّ يذكُرُ فيها النار ﴿بسم الله الـرحمـن الـرحيـم * وإنْ منكـم إلاَّ واردُهـا، كـان علـى ربِّـك حَتْمـاً مَقْضِيّاً﴾. صدق الله العظيم.. فلست أدري كيف لي بالصُّدور بعد الوُرود؟

لم أفهم معنى كلام ابن رواحة، فقاطعتُه سائلاً:

ـ عفواً سيِّدي الشاعر الشهيد، لم أفهم معنى كلامك هذا «كيف لي بالصدور بعد الورود»؟

فشرح لي معناها بقوله:

ـ يعني.. كيف أرِدُ النارَ ثم أغادرُها سالماً معافىً؟ هل أنجو من حرّها ولهيبها وزَمْهريرها؟

ثم تابع حديثَه قائلاً:

ـ هذا ما أبكاني.. فقال لنا المسلمون وهم يودّعوننا:

صَحِبَكم اللَّهُ ودَفَعَ عنكم، وردَّكم إلينا صالحين. فقلت:

لكننـي أسـأل الـرحمـان مغفـرةً وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذفُ الزَّبَدا

وشرحت صادقة معنى البيت فقالت:

ـ هذا بيت رائع المعنى.. يعني.. الشاعر يرجو من الله أن يرزقه الشهادة في سبيله.

فقلت لها: أنا فهمت معنى البيت يا أختي، ولكن.. ما معنى: ذات فَرْغ؟ ضربةً ذات فرغ.. ما معناها؟.

فـأجـابت:

ــ ألمْ يَدْعُ لهم المسلمون بالعودة سالمين؟

قلت: بلى.

فقالت: الشاعر هنا لا يريد أن يعود سالماً.. إنه يتمنى على الله أن يهيِّـىءَ له مَنْ يضربه بالسيف ضربة ذات فرغ، يعني ذات سعة، يعني ضربة تجرحه جرحاً غائراً وسيعاً تتطاير منه الدماء، وتسوق إليه الشهادة.. فهمت يا أخي يا صادق؟

فقال عبد الله الذي كان يصغي لكلام أختي صادقة:

ــ بارك الله فيك يا ابنتي، فأنا كنت أتطلع إلى الشهادة في سبيل الله، كما كنت أخشى أن لا أكون أهلاً لها، فليس كل امرىء يستأهل الفوز بالشهادة.. الله جلَّ وعزَّ يصطفي الشهداء من عباده الصالحين، وأرجو أن أكون منهم.. ثم قلت:

أو طعنـةً بيـدَيْ حـرَّانَ مُجْهِـزةً بحـربـةٍ تُنْفِـذُ الأحشـاء والكبـدا

فقالت صادقة تشرح لي البيت الذي فهمتُ معناه العامّ:

ــ الشاعر تمنَّى ضربةً قاتلة تقوده إلى الجنة، في البيت السابق، وهو في هذا البيت يتمنّى طعنة قاتلة برمح يثقب أحشاءه وكبده، ويهديه إلى الجنة.

فشكرتُ أختي صادقة على شرحها هذا، ثم توجَّهْتُ بالسؤال إلى عبد الله فقلت:

ـ ولكن. . لماذا مثل هذه الأمنية يا سيِّدي؟

ـ لقد علّلتُ سبب أمنيتي هذه بقولي في البيت التالي:

حتى يقولوا إذا مرُّوا على جَدَثي: يا أرشدَ اللَّهُ من غازٍ وقد رشدا

وقالت صادقة:

ـ حتى يدعو له كلُّ من يمر بقبر الشاعر الشهيد. . الجدث: القبر. . . ثم ماذا يا سيّدي الشاعر العظيم؟

قال عبد الله:

ـ ثم تقدّمتُ من سيّدي رسول الله ﷺ أودّعه، وأملأ عينيّ من نوره وأقول:

خَلَفَ السلامُ على امرىءٍ ودَّعْتُه في النخل خيرِ مشيِّعٍ وخليلِ

ثم سرتُ وسار الجيش، وكنت ألتفت خلفي بين الحين والحين، أودّعُ رسول الله ﷺ. ثم غَذَذْنا السير، وكنت أخاطب ناقتي التي كانت تحملني إلى المعركة:

إذا أدَّيْتِني وحَمَلْتِ رَحْلي مسيرةَ أربعٍ بعد الحَساءِ

وتقدَّمَتْ صادقةُ تشرح لي معنى البيت وتقول: يقول الشاعر لناقته:

ـ إذا استطعت أن تحمليني أربعةَ أيام من بعد مغادرة المكان الذي فيه الحساء. . نعم يا سيِّدي؟

فتابع عبد الله يقول:

فشأنُكِ أنعمٌ وخَلاكِ ذمٌّ ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

وقالت صادقة:

يعني أن الشاعر لن يكلّفها بسفرٍ بعد ذلك، بل تكون حرةً طليقة، لأنه عزم على الموت في سبيل الله، ولن يعود إلى أهله.

ثم التفتتْ إلى الشاعر وسألتْه:

ـ أليس كذلك يا سيّدي؟

فأجابها عبد الله:

ـ مباركة وصادقة أنت يا صادقة.. عبّرتِ عما في نفسي.

فسألتُ صادقة:

ـ عفواً يا أختي.. شاعرنا العزيز قال: ولا أرجعْ.. كيف جزم الفعل المضارع (أرجعْ)؟

قالت صادقة:

ـ الأمر بسيط يا أخي صادق.. جزم الفعل (أرجعْ) على الدعاء:

الدعاء لنفسه بالشهادة وعدم الرجوع إلى أهله.

نعم يا سيِّدي، ونرجو أن لا تتضايق من هذه المداخلات الضرورية لشرح شعركم البديع..

قال عبد الله:

ـ بل أنا سعيد إذ أرى حَفَدَتي أحبَّاءَ رسول الله ﷺ يحتفلون بأخبار أجدادهم، وبشعرهم ولغتهم مثل هذا الاحتفال..

وسكت عبد الله لحظات ثم قال:

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهيَ الثَّواءِ

قالت صادقة:

ـ هذا البيت واضح ومفهوم.. بأرض الشام: لأن مؤتة في بلاد الشام، من سورية الجنوبية التي تُسمَّى الآن: الأردنّ.. والثَّواء: مصدر الفعل ثوى يثوي، بمعنى أقام يقيم.. الثواء: الإقامة يا أخي.

وتابع عبد الله إنشاده:

وردَّكِ كلُّ ذي نسبٍ قريب إلى الرحمان منقطعَ الإخاءِ
هنالك لا أبالي طَلْعَ بَعْلٍ ولا نخلٍ أسافلُها رَوَاءِ

وقد سمعني زيد بن أرقم أُنْشِدُ هذه الأبيات فبكى، فخفقْتُه بالدِّرَّة وقلت له: ما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشهادة، وترجعُ بين شُعبتي الرَّحْل؟.

ولاحظت أختي نظراتي إليها، فعَرَفَتْ أني لم أفهم معنى البيت الأخير، فاستأذنت الشاعر في شرح البيت، ولمّا أذن لها قالت:

ـ البعل هنا: النبات الذي يشرب بعروقه من الأرض، ومنه البِطِّيخ البعلي أي غير المسقيّ. ولا نخلٍ رَوَاء: أي مرويّة.. أظن أن معنى البيت صار واضحاً يا أخي..

ثم التفتت إلى الشاعر وقالت:

ـ أمّا ناقتك يا سيدي، فتستأهل كلَّ خير، لأنها أوصلتك إلى ما تريد.. أوصلتك إلى الجنة.

واستلمت الحديث من صادقة، وتوجهت نحو الشاعر الشهيد:

ـ والآن.. ماذا عن معركة مؤتة يا سيدي الشهيد؟

فقال عبد الله:

ــ عندما نزلنا أرض الشام، بلغَنا أنّ هرقل ــ ملك الروم ــ قد حشد مِئَةَ ألفٍ من الروم، ومِئَةَ ألفٍ من مشركي الأعراب والعرب، فكانوا مئتي ألفِ مقاتل، وكنّا ثلاثة آلاف مجاهد، فتردَّدَ المسلمون في خوض المعركة.

فقاطَعتْه صادقة قائلة:

ــ معكم كلُّ الحقِّ في هذا التردُّدِ يا سيِّدي، فليس من المعقول أن يتصدَّى ثلاثة آلاف لمئتي ألف.

فقال عبد الله:

ــ كان هذا رأي عدد من المجاهدين ذوي الرأي، أمّا رأيي فكان غير ذلك.. لهذا وقفت في المجاهدين خطيباً وقلت:

يا قوم.. والله إن التي تكرهون، لَلّتي خرجتم تطلبون.. الشهادة..

وشرحت صادقة معنى كلامه هذا بقولها:

ــ يعني.. إني أراكم تكرهون الشهادة التي خرجتم من أجلها مقاتلين.. نعم يا سيدي..

فتابع عبد الله خُطبته:

ــ واللّهِ إنّا لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولكن نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهورٌ ونصر، وإمّا شهادة.

فقال المسلمون:

ــ قد ــ والله ــ صدق ابن رواحة.

ثم قلت لهم:

ـ إني حاملٌ على العدوِّ، فمن يُرِدِ الجنّة فليحملْ معي.

فسألْتُه: وهل حملوا معك يا سيِّدي؟

فأجاب:

ـ لقد شَدُّوا معي شدَّةً واحدة، صادقة..

وعدتُ أسأله:

ـ هل كنتَ القائد يا سيِّدي؟

وأجاب:

ـ لا.. فقد كان رسول الله ﷺ قد أمَّرَ زيد بن حارثة، وقال: فإن أصيب زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر، فالأمير عبد الله. فلما أصيب زيد وجعفر واستشهدا استلمت الراية من جعفر قبل أن تَمَسَّ الأرض، ثم حملتُ على العدو وأنا أرتجز:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... طائعةً أو.. لا.. لَتُكرَهِنَّهْ
إنْ أجْلَبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّهْ ... ما لي أراكِ تكرهين الجنّةْ؟
قد طال ما قد كنتِ مطمئنّةْ ... هل أنتِ إلاّ نُطْفَةٌ في شَنَّةْ؟

نظرت صادقة نحوي، فهززت رأسي أقول لها: نعم، لم أفهم معناها، فقالت تشرح:

ـ إن أجلب الناس: أي إذا صاحوا واجتمعوا. والرنّة: البكاء.

والنطفة: الماء القليل الصافي، والشنّة: القِرْبة البالية. يعني: يوشك هذا الماء القليل أن يراق، أو أن تنخرق القِرْبة البالية. وهذه كناية عن الضآلة وعدم الاهتمام، ضرب الشاعر هذا مثلاً لنفسه في جسده..

ثم نظرت صادقة نحو عبد الله تستحثّه على الكلام فقال:

ـ ثم خاطبتُ نفسي بقولي:

يــا نفــس إلاّ تُقتَلــي تمــوتــي		هذا حياض الموت قد صَلِيْتِ
ومــا تمنَّيـــتِ فقـــد لَقِيْـــتِ		إن تفعلــي فِعْلَهمــا هُــدِيْــتِ
وإن تــأخَّــرْتِ فقــد شَقِيْــتِ

فقلت له:

ـ أظنك يا سيِّدي تعني بكلامك هذا القائدين اللذين سبقاك إلى الجنة: زيدَ بن حارثة، وجعفر بن أبـي طالب.

فقال عبد الله:

ـ أجلْ يا بني.. وإلاَّ.. فمن غيرُهما؟.. ثم أتاني ابن عمٍّ لي بعظمة عليها بعض اللحم، وقال لي:

ـ شُدَّ بهذا صُلْبك، فإنك قد لقيتَ في أيامك هذه ما لقيت.. فأخذتها من يده، ونهشت منها نهشة في فمي، ثم سمعت جلبة المتحاربين، فقلت لنفسي: وأنتِ في الدنيا؟.

ثم تقدمت باتجاه العدو، وقاتلت قتالاً يرضى عنه الله ورسوله والمؤمنون، إلى أن نلت الشهادة بفضل الله الكريم.

* * *

هذا ما حدّثنا به الفتى صادق أمين..

ألا ما أجمل أحاديثه!!.

● ● ●

